

كلام بن عبد الوهاب في ابن حجر

أنا في مخالفتي هذا العالم، لم أخالفه وحدي، فإذا اختلفت أنا وشافعي مثلاً في أبوال مأكول اللحم، وقلت القول بنجاسته، يخالف حديث العرينين، ويخالف حديث أنس: " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مرابض الغنم " ١ . فقال هذا الجاهل الظالم: أنت أعلم بالحديث من الشافعي؟ قلت: أنا لم أخالف الشافعي من غير إمام اتبعته، بل اتبعت من هو مثل الشافعي أو أعلم منه، قد خالفه، واستدل بالأحاديث.

فإذا قال أنت أعلم من الشافعي؟ قلت: أنت أعلم من مالك؟ وأحمد؟ فقد عارضته بمثل ما عارضني به، وسلم الدليل من المعارض، واتبعت قول الله تعالى: { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } الآية، [سورة النساء آية: ٥٩] . واتبعت من اتبع الدليل في هذه المسألة من أهل العلم، لم أستدل بالقرآن، أو الحديث وحدي، حتى يتوجه علي ما قيل، وهذا على التنزل؛ وإلا فمعلوم: أن اتباعكم لابن حجر في الحقيقة، ولا تعبؤون بمن خالفه من رسول، أو صاحب، أو تابع، حتى الشافعي نفسه، ولا تعبؤون بكلامه إذا خالف نص ابن حجر، وكذلك غيركم إنما اتباعهم لبعض المتأخرين لا للأئمة.

فهؤلاء الحنابلة من أقل الناس بدعة؛ وأكثر الإقناع، والمنتهى، يخالف لمذهب أحمد ونصه، يعرف ذلك من عرفه؛ ولا خلاف بيني وبينكم أن

أهل العلم إذا أجمعوا وجب اتباعهم؛ وإنما الشأن إذا اختلفوا، هل يجب علي أن أقبل الحق ممن جاء به، وأرد المسألة إلى الله والرسول، مقتدياً بأهل العلم؟ أو أنتحل بعضهم من غير حجة، وأزعم أن الصواب في قوله؟ فأنتم على هذا الثاني، وهو الذي ذمه الله، وسماه شركاً، وهو اتخاذ العلماء أرباباً؟ وأنا على الأول، أدعو إليه، وأناظر عليه، فإن كان عندكم حق رجعنا إليه، وقبلناه منكم.

وإن أردت النظر في إعلام الموقعين، فعليك بالمناظرة في أثائه، عقدها بين مقلد وصاحب حجة. وإن ألقي في ذهنك: أن ابن القيم مبتدع، وأن الآيات التي استدل بها ليس هذا معناها، فاضرع إلى الله، وأسأله أن يهديك لما اختلفوا فيه من الحق، وتجرد ناظراً، ومناظراً، واطلب كلام أهل العلم في زمانه، مثل الحافظ الذهبي، وابن كثير، وابن رجب، وغيرهم، فإن لم تتبع لهؤلاء، فانظر كلام الأئمة قبلهم، كالحافظ البيهقي في كتاب المدخل، والحافظ ابن عبد البر، والخطابي، وأمثالهم، ومن قبلهم، كالشافعي، وابن جرير، وابن قتيبة، وأبي عبيد، فهؤلاء إليهم المرجع في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام السلف. وإياك وتفسير المحرفين للكلم عن مواضعه، وشروحهم، فإنها القاطعة عن الله، وعن دينه.

وتأمل: ما في كتاب الاعتصام للبخاري، وما قال أهل العلم في شرحه، وهل يتصور شيء بما صرح مما صرح عنه صلى الله عليه وسلم أن أمته

ستفترق على أكثر من سبعين فرقة، أخبر أنهم كلهم في النار إلا واحدة، ثم وصف تلك الواحدة أنها التي على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأنتم مقرون أنكم على غير طريقتهم، وتقولون: ما نقدر عليها، ولا يقدر عليها إلا المجتهد، فجزمتم أنه لا ينتفع بكلام الله، وكلام رسوله إلا المجتهد. وتقولون: يحرم على غيره أن يطلب الهدى من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام أصحابه؛ فجزمتم وشهدتم: أنكم على غير طريقتهم، معترفين بالعجز عن ذلك.

وإذا كنتم مقرين أن الواجب على الأولين اتباع كتاب الله، وسنة رسوله، لا يجوز العدول عن ذلك، وأن هذه الكتب، والتي خير منها، لو تحدث في زمن عمر بن الخطاب لفعل بها وبأهلها أشد الفعل، ولو تحدث في زمن الشافعي وأحمد، لاشتد نكيرهم لذلك، فليت شعري، متى حرم الله هذا الواجب، وأوجب هذا المحرم؟!

ولما حدث قليل من هذا، لا يشبه ما أنتم عليه في زمن الإمام أحمد، اشتد إنكاره لذلك؛ ولما بلغه عن بعض أصحابه أنه يروي عنه مسائل بخراسان، قال: أشهدكم أنني قد رجعت عن ذلك، ولما رأى بعضهم يكتب كلامه: أنكر عليه، وقال: تكتب رأيا لعلي أرجع عنه غدا، اطلب العلم مثل ما طلبنا.

ولما سئل عن كتاب أبي ثور؟ قال: كل كتاب ابتدع، فهو بدعة. ومعلوم:
أن أبا ثور من كبار أهل العلم؛ وكان أحمد يثني عليه؛ وكان ينهى الناس
عن النظر في كتب أهل العلم الذين يثني عليهم ويعظمهم.
ولما أخذ بعض أئمة الحديث كتب أبي حنيفة، هجره أحمد، وكتب إليه:
إن تركت كتب أبي حنيفة أتيناك تسمعنا كتب ابن المبارك. ولما ذكر له
بعض أصحابه أن هذه الكتب فيها فائدة لمن لا يعرف الكتاب والسنة،
قال: إن عرفت الحديث لم تحتج إليها، وإن لم تعرفه لم يحل لك النظر
فيها.

وقال: عجت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله
يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، [التور، من الآية: ٦٣] . قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة:
الشرك، ومعلوم: أن الثوري عنده غاية، وكان يسميه أمير المؤمنين؛ فإذا
كان هذا كلام أحمد في كتب نتمنى الآن أن نراها، فكيف بكتب قد أقر
أهلها على أنفسهم أنهم ليسوا من أهل العلم؟! وشهد عليهم بذلك،
ولعل بعضهم مات وهو لا يعرف ما دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله
صلى الله عليه وسلم.

وشبهتكم التي ألقيت في قلوبكم: أنكم لا تقدرّون على فهم كلام الله،
ورسوله، والسلف الصالح، وقد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
" لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة " ١ إلى آخره، فتأمل

هذه الشبهة، أعني قولكم: لا نقدر على ذلك؛ وتأمل ما حكى الله عن اليهود، في قوله: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} [سورة البقرة آية: ٨٨] ، وقوله: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ} ، [سورة البقرة آية: ٩٩] ، وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة الزخرف آية: ٣] ، وقوله: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} ، [سورة القمر آية: ١٧] .

واطلب تفاسير هذه الآيات من كتب أهل العلم؛ واعرف من نزلت فيه؛ واعرف الأقوال والأفعال، التي كانت سببا لنزول هذه الآيات، ثم اعرضها على قولهم: لا نقدر على فهم القرآن والسنة، تجد مصداق قوله: " لتتبعن سنن من كان قبلكم " ٢ وما في معناه من الأحاديث الكثيرة، فلتكن قصة إسلام سلمان الفارسي منكم على بال.

ففيها: أنه لم يكن على دين الرسل إلا الواحد بعد الواحد، حتى إن آخرهم قال عند موته: لا أعلم على وجه الأرض أحدا على ما نحن عليه، ولكن قد أظل زمان نبي.

واذكر مع هذا قول الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ} ، [سورة هود آية: ١١٦] .

فحقيق لمن نصح نفسه، وخاف عذاب الآخرة: أن يتأمل ما وصف الله به اليهود في كتابه، خصوصا ما وصف به علماءهم، ورهبانهم، من كتمان

الحق، ولبس الحق بالباطل، والصد عن سبيل الله، وما وصفهم الله، أي: علماءهم، من الشرك، والإيمان بالجبت والطاغوت، وقولهم للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً؛ لأنه عرف أن كل ما فعلوا لا بد أن تفعله هذه الأمة، وقد فعلت.

وإن صعب عليك مخالفة الكبر، أو لم يقبل ذهنك هذا الكلام، فأحضر بقلبك: أن كتاب الله أحسن الكتب، وأعظمها بياناً وشفاء لداء الجهل، وأعظمها فرقاً بين الحق والباطل، والله سبحانه قد عرف تفرق عباده، واختلافهم قبل أن يخلقهم، وقد ذكر في كتابه: {وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً} [سورة آية: ٦٤] ، وأحضر قلبك هذه الأصول وما يشابهها في ذهنك، واعرضها على قلبك، فإنه إن شاء الله يؤمن بها على سبيل الإجمال.

فتأمل قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} ، [سورة لقمان آية: ٢١] ، وتكرير هذا الأصل في مواضع كثيرة، وكذلك قوله: {أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ}

سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} ، [سورة الأعراف آية: ٧١] .

فكل حجة تحتجون بها، تجدها مبسوبة في القرآن، وبعضها في مواضع كثيرة.

فأحضر بقلبك: أن الحكيم الذي أنزل كتابه شفاء من الجهل، فارقا بين الحق والباطل، لا يليق منه أن يقرر هذه الحجج، ويكررها، مع عدم حاجة المسلمين إليها، ويترك الحجج التي يحتاجون إليها، ويعلم أن عباده يفترون؛ حاشا أحكم الحاكمين من ذلك.

ومما يهون عليك مخالفة من خالف الحق، وإن كان من أعلم الناس وأذكاهم، وأعظمهم جاها، ولو اتبعه أكثر الناس: ما وقع في هذه الأمة من افتراقهم في أصول الدين، وصفات الله تعالى، وغالب من يدعي المعرفة، وما عليه المتكلمون، وتسميتهم طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حشوا، وتشبيها، وتجسيما. مع أنك إذا طالعت في كتاب من كتب الكلام - مع كونه يزعم أن هذا واجب على كل أحد، وهو أصل الدين - تجد الكتاب من أوله إلى آخره لا يستدل على مسألة منه بآية من كتاب الله، ولا حديث عن رسول الله، اللهم إلا أن يذكره ليحرفه عن مواضعه. وهم معترفون أنهم لم يأخذوا أصولهم من الوحي، بل من عقولهم، ومعترفون أنهم مخالفون للسلف في ذلك، مثل ما ذكر في فتح الباري، في مسألة الإيمان، على قول البخاري: وهو قول وعمل، ويزيد وينقص؛ فذكر إجماع السلف على ذلك، وذكر عن الشافعي: أنه نقل الإجماع على ذلك، وكذلك ذكر أن البخاري نقله، ثم بعد ذلك حكى كلام المتأخرين، ولم يرده.

فإن نظرت في كتاب التوحيد في آخر الصحيح، فتأمل تلك التراجم،
وقرأت في كتب أهل العلم من السلف، ومن أتباعهم من الخلف، ونقلهم
الإجماع على وجوب الإيمان بصفات الله تعالى، وتلقيها بالقبول، وأن من
جحد شيئاً منها، أو تأول شيئاً من النصوص، فقد افترى على الله، وخالف
إجماع أهل العلم، ونقلهم الإجماع: أن علم الكلام بدعة وضلالة، حتى
قال أبو عمر ابن عبد البر: أجمع أهل العلم في جميع الأعصار
والأمصار، أن أهل الكلام أهل بدع وضلالات، لا يعدون عند الجميع من
طبقات العلماء؛ والكلام في هذا يطول.

والحاصل: أنهم عمدوا إلى شيء أجمع المسلمون كلهم، بل وأجمع عليه
أجهل الخلق بالله عبدة الأوثان، الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه
وسلم فابتدع هؤلاء كلاماً من عند أنفسهم، كابروا به العقول أيضاً، حتى
إنكم لا تقدرون تغييرون عوامكم عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ثم
مع هذا كله تابعهم جمهور من يتكلم في علم هذا الأمر، إلا من سبقت
لهم من الله الحسنى، وهم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود،
يبغضونهم الناس، ويرمونهم بالتجسيم.

هذا، وأهل الكلام وأتباعهم، من أحذق الناس، وأفطنهم، حتى إن لهم من
الذكاء والحفظ والفهم، ما يحير اللبيب، وهم وأتباعهم مقرون أنهم
مخالفون للسلف، حتى إن أئمة المتكلمين، لما ردوا على الفلاسفة في
تأويلهم في آيات الأمر والنهي، مثل قولهم: المراد بالصيام كتمان أسرارنا،

والمراد بالحج زيارة مشائخنا؛ والمراد بجبريل: العقل الفعال؛ وغير ذلك من إفكهم؛ ردوا عليهم الجواب: بأن هذا التفسير خلاف المعروف بالضرورة من دين الإسلام؛ فقال لهم الفلاسفة: أنتم جحدم علو الله على خلقه، واستواءه على عرشه، مع أنه مذكور في الكتب، على السنة الرسل، وقد أجمع عليه المسلمون كلهم، وغيرهم من أهل الملل، فكيف يكون تأويلنا تحريفا؟! وتأويلكم صحيحا؟! فلم يقدر أحد من المتكلمين أن يجيب عن هذا الإيراد.

والمراد: أن مذهبهم مع كونه فاسدا في نفسه، مخالفا للعقول، وهو أيضا مخالف لدين الإسلام، والكتاب والرسول، وللسلف كلهم، ويذكرون في كتبهم أنهم مخالفون للسلف، ثم مع هذا راجت بدعتهم على العالم والجاهل، حتى طبقت مشارق الأرض ومغاربها.

وأنا أدعوك إلى التفكير في هذه المسألة، وذلك أن السلف قد كثر كلامهم، وتصانيفهم في أصول الدين، وإبطال كلام المتكلمين، وتفكيرهم، وممن ذكر هذا من متأخري الشافعية: البيهقي، والبعثي، وإسماعيل التيمي، ومن بعدهم، كالحافظ الذهبي؛ وأما متقدموهم: كابن سريج، والدارقطني، وغيرهما، فكلهم على هذا الأمر؛ **ففتش في كتب هؤلاء، فإن أتيتني بكلمة واحدة أن منهم رجلا واحدا لم ينكر على المتكلمين، ولم يكفرهم، فلا تقبل مني شيئا أبدا؛ ومع هذا كله، وظهوره**

غاية الظهور، راج عليكم حتى ادعيتم أن **أهل السنة هم المتكلمون**؛ والله المستعان.

ومن العجب: أنه يوجد في بلدكم من يفتي الرجل بقول إمام؛ والثاني بقول آخر، والثالث بخلاف القولين؛ ويعد فضيلة، وعلماء، وذكاء، ويقال: هذا يفتي في مذهبين أو أكثر. ومعلوم عند الناس: أن مراده في هذا، العلو والرياء، وأكل أموال الناس بالباطل؛ فإذا خالفت قول عالم لمن هو أعلم منه، أو مثله إذا كان معه الدليل، ولم آت بشيء من عند نفسي، تكلمتم بهذا الكلام الشديد، **فإن سمعتم أني أفيتت بشيء خرجت فيه من إجماع أهل العلم، توجه علي القول.**

وقد بلغني أنكم في هذا الأمر قمتم وقعدتم، فإن كنتم تزعمون أن هذا إنكار للمنكر، فيا ليت قيامكم كان في عظام في بلدكم تضاد أصلي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. منها - وهو أعظمها - : عبادة الأصنام عندكم، من بشر، وحجر؛ هذا يذبح له؛ وهذا ينذر له؛ وهذا يطلب إجابة الدعوات وإغاثة اللهفات؛ وهذا يدعو المضطر في البر والبحر، وهذا يزعمون أن من التجأ إليه ينفعه في الدنيا والآخرة، ولو عصى الله!

فإن كنتم تزعمون أن هذا ليس هو عبادة الأصنام والأوثان المذكورة في القرآن، فهذا من العجب، فإني لا أعلم أحدا من أهل العلم يختلف في ذلك، اللهم إلا أن يكون أحد وقع فيما وقع فيه اليهود، من إيمانهم

بالجبت والطاغوت. وإن ادعيتكم: أنكم لا تقدرُونَ على ذلك، فإن لم تقدرُوا على الكل، قدرتم على البعض؛ كيف وبعد الذين أنكروا على هذا الأمر، وادعوا أنهم من أهل العلم، ملتبسون بالشرك الأكبر، ويدعون إليه، ولو يسمعون إنسانا يجرّد التوحيد، لرموه بالكفر والفسوق؛ ولكن نعوذ بالله من رضى الناس بسخط الله.

ومنها: ما يفعله كثير من أتباع إبليس، وأتباع المنجمين والسحرة والكهان، ممن ينتسب إلى الفقر، وكثير ممن ينتسب إلى العلم من هذه الخوارق التي يوهمون بها الناس، ويشبهون بمعجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، ومرادهم أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله؛ حتى إن بعض أنواعها يعتقد فيه من يدعي العلم: أنه من العلم الموروث عن الأنبياء، من علم الأسماء، وهو من الجبت والطاغوت، ولكن هذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم " لتبعن سنن من كان قبلكم ومنها: هذه الحيلة الربوية، التي مثل حيلة أصحاب السبت، أو أشد. وأنا أدعو من خالفني إلى أحد أربع: إما إلى كتاب الله، وإما إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإما إلى إجماع أهل العلم؛ فإن عاند، دعوته إلى المباهلة، كما دعا إليها ابن عباس في بعض مسائل الفرائض، وكما دعا إليها سفيان، والأوزاعي، في مسألة رفع اليدين، وغيرهما من أهل العلم؛ والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم.